مرحلة التأسيس الأكاديمي للأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا

انها بداية النشأة الأكاديمية للأنتروبولوجيا أو النياسة الثقافية مع مؤسسها فرانس بواس، وكانت الاهتمامات العلمية عند فرانس بواس في بداية الأمر ضمن علوم البحار، حيث أعد أطروحة الدكتوراه حول مياه البحار عام 1881، ثم انتقل الى شمال كندا وكان مشحونا برغبة اكتشاف العوالم المجهولة، والبحث أكثر عن الكيفيات التي تؤثر من خلالها العوامل الطبيعية في حياة الشعوب، وطرائق التفكير لدى السكان المحليين وكان ذلك بين عامي 1883-1884 ولكن خلال هذه الزيارة العلمية تغيرت اهتمامات فرانس بواس كلية وتغيرت معها اهتماماته البحثية، من خلال استنتاجاته واقتناعه بصفة راسخة أن عامل الثقافة واللغة والأحداث التاريخية في المجتمعات هي الأقوى من العوامل البيولوجية والعوامل الطبيعية، وهو ما أدى به الى التركيز على دراسة الثقافة.

حيث خلال مكوثه سنة كاملة في شمال كندا أجرى بواز بحثا حول لغة السكان الأصليين **الأنويت** وركز بالبحث على شؤون حياتهم، وبعد ارتحاله الى الولايات المتحدة الأمريكية قام بالعديد من الزيارات العلمية ذات الهدف البحثي الى قبائل الهنود الحمر خصوصا صحاري الشمال الغربي الأمريكي

لقد تمكن فرانس بواس من تثبيت دعائم مدرسة الاناسة الثقافية الأمريكية، من خلال جملة من مجهوداته الفكرية والاعدادية التكوينية، حيث أشرف على تكوين واعداد عدد كبير من الأنثروبولوجيين نذكر من أشهرهم : أ.ل. كروبر، ر.هـ. لوي، ب. رادن، وادوارد سابير، وم. ج. هرسكوفيتز.

ومن الناحية الانتقادية تدعيما وتثبيتا لمدرسة الاناسة الثقافية الناشئة نشر بواز مجموعة من المقالات انتقد فيها طروحات الاتجاه التطوري، ومن أمثلة ذلك :مقال بعنوان" حدود المنهج المقارن في الاناسة" ضمن مجلة ساينس المجلد 4، 1896، ومقالته الأخرى :" المنهج النياسي" في مجلة أمريكان أنثروبولوجيست المجلد 22، 1920.[1]

[1] - جاك لومبار: مدخل الى الاثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997، ص131، ص133

لقد شهدت الممارسة الأنثروبولوجية مع فرانس بواس منعطفا حقيقيا، فقد كان بواس رجل ميدان، كانت التحقيقات البحثية التي أجراها ابتداء من السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر رائدة خاصة بين قبائل كواكيوتل Kwakutil والشينوك Chinook من كولومبيا البريطانية، وأخضعها لوجهة نظر يمكن وصفها اليوم بأنها ميكرو–سوسيولوجية. وبخصوص العمل الميداني يوصي بواس بتسجيل كل شيء: من المواد المكونة للمنازل حتى نغمات المواويل التي يغنيها الاسكيمو بطريقة مفصلة وتتبع الجزئيات الدقيقة، كل شيء يجب أن يكون موضوع وصف دقيق للغاية وينقل بأمانة فائقة، كما ذكر أنه لا يمكننا أن نثق في المحققين الهواة غير المتخصصين، بل يجب على الأنثروبولوجي أن يعد وحده الدراسة المونوغرافية بصورة مباشرة، أي يصف علميا المجتمع المصغر منظورا إليه في كليته، وعلى أساس أن له استقلالا نظريا.(2)

كان فرانس بواس قد عين أستاذا في جامعة برلين، حيث كانت الفرصة سانحة للاطلاع على أعمال الانتشاري فريدريك.راتزل، كما اشتغل في المتحف الاثنوغرافي إلى جانب باستيان، وكانت حادثة إحضار مجموعة من هنود بيلا كولا إلى برلين عام 1885 قد دفعته إلى الاهتمام بثقافات الشاطيء الشمالي الغربي ، ثم غادر بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1886 ليستقر بصفة نهائية ويتحصل على الجنسية الأمريكية، ورغم مهامه الجامعية الكثيرة كان يشارك في العديد من الملتقيات الاثنوغرافية ذات الطابع العالمي كما خطط العديد من المتاحف الاثنوغرافية، كما خطط البرنامج العلمي لبعثة " جيزوب الى شمال المحيط الهادي" كما يعود له الفضل في انجاز أول دراسة تصنيفية عن ثقافات وادي مكسيكو خلال الفترة 1919–1922.كما عمل لدى هنود البويبلو وقام بدراسة ألسنية للغتهم، ومن خلال أعمال بواس الميدانية المضمنة في آلاف الصفحات وعديد المجلدات يمكننا معرفة الكثير من الثقافات وعديد اللغات لقبائل شمال غرب أمريكا الشمالية ابتداء من الشيتوك بوادي كولومبيا الى الكواكيوتل والتسيمشيان في كولومبيا البريطانية.[3]

وظهر في هذه الفترة إلى جانب العالم الإنكليزي (تايلور) , العالم الأمريكي (فرانس بواز) الذي أخذ بالاتجاه التأريخي في دراسة الثقافات الإنسانية , وذلك من جانبين :

---

[2] - فرانسوا لابلانتين: مفاتيح الأنثروبولوجيا، تعريب حفناوي عمايرية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص30

[3] - اثنولوجيا أنثروبولوجيا ص 308-310

أولهما : إجراء دراسات تفصيلية لثقافات مجموعات صغيرة , كالقبائل والعشائر , ومراحل تطوّرها , وثانيهما : إجراء مقارنة بين تأريخ التطور الثقافي عند مجموعة من القبائل , بغية الوصول إلى قوانين عامة أو مبادئ تحكم نمو الثقافات الإنسانية وتطوّرها , وهذا ما يعطي أهمية للأنثروبولوجيا بإعتبارها علماً لع منهجيته الخاصة .

المرحلة الثانية : وتقع ما بين (1900–1915م) , وتُعد المرحلة التكوينية , حيث تركزت الجهود في الأبحاث والدراسات , على مجتمعات صغيرة محددة لمعرفة تأريخ ثقافتها ومراحل تطوّرها , وبالتالي تحديد عناصر هذه الثقافة قبل أن تنقرض , وإستناداً إلى ذلك , جرت دراسات عديدة على ثقافة الهنود الحمر في أمريكا , وتوصل الباحث (كلارك وسلر) إلى إسلوب يمكن بواسطته من دراسة أي إقليم أو منطقة في العالم تعيش فيها مجتمعات ذات ثقافات متشابهة , أو ما أُصطلح على تسميته (بالمنطقة الثقافية) , وقد شبّه (وسلر) المنطقة الثقافية بدائرة , تتركز معظم العناصر الثقافية في مركزها , وتقل هذه العناصر كلما ابتعدت عن المركز .

المرحلة الثالثة : وتقع ما بين (1915–1930م) وتُعد فترة الإزدهار , حيث تميزت بكثرة البحوث والمناقشات في القضايا التي تدخل في صلب علم الأنثروبولوجيا الثقافية , ولا سيما تلك الدراسات التي تركزت في أمريكا , ويرجع إزدهار الأنثروبولوجيا في تلك الفترة إلى نضج هذا العلم ووضوح مفاهيمه ومناهجه , وترافق ذلك بإزدهار المدرسة التأريخية في أمريكا , وظهور المدرسة الإنتشارية في إنكلترا , ولا سيما بعد الأخذ بمفهوم (المنطقة الثقافية) الذي طرحه (وسلر) كإطار لتحليل المعطيات الثقافية وتفسيرها , والتوصل إلى العناصر المشتركة بين الثقافات المتشابهة.

المرحلة الرابعة : وتقع ما بين (1930–1940م) , وعلى الرغم من قصر مدتها , فقد أُطلق عليها الفترة التوسعية , حيث تميزت بإعتراف الجامعات الأمريكية والأوربية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم في إطار الأنثروبولوجيا العامة , وخُصصت لها فروع ومقررات دراسية في أقسام علم الإجتماع في الجامعات , وظهرت في هذه الفترة النظرية التكاملية التي تبناها (سابير) عالم الإجتماع الأمريكي , والتي أستطاع من خلالها تحديد مجموعة متناسقة من أنماط السلوك الإنساني , والتي يمكن إعتمادها في دراسة السلوك الفردي , لدى أفراد مجتمع معيّن , حيث إن

جوهر الثقافة هو حقيقة الأمر , ليس إلا تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض , وما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات ومشاعر وطرائق حياتية مشتركة , وقد تأثرت الأنثروبولوجيا في هذه الفترة بالأنثروبولوجيا الإجتماعية , ولا سيما في مفاهيمها ومناهجها , وذلك بفضل الأبحاث التي قام بها (مالينوفسكي و بروان) في مجالات الأنثروبولوجيا الإجتماعية.

المرحلة الخامسة : وهي الفترة المعاصرة التي بدأت منذ عام 1940م , وما زالت حتى وقتنا الحاضر , وتمتاز هذه المرحلة بتوسع نطاق الدراسات الأنثروبولوجية , خارج أوربا وأمريكا , وإنتشار الأنثروبولوجيا الثقافية في العديد من جامعات الدول النامية , في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية , وترافق ذلك مع ظهور إتجاهات جديدة في الدراسات الأنثروبولوجية , كان الإتجاه القومي في مقدّمة هذه الإتجاهات الحديثة في الأنثروبولوجيا الثقافية , والذي يهدف إلى تحديد الخصائص الرئيسة للثقافة القومية , وقد أخذت بهذا الإتجاه الباحثة الأمريكية (روث بينيدكت) التي قامت بدراسة الشخصية اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية , ويسمى الإتجاه القومي في تقييم الثقافة (الإنطوائية القومية) , والتي تعني : إن الإنسان يفضل طريقة قومه في الحياة , على طرائق الأقوام الأخرى جميعها , تلك هي النتيجة المنطقية لعميلة التثقيف الأولى , والتي يتفق بها شعور معظم الأفراد نحو ثقافتهم الخاصة , سواء أفصحوا عن هذا الشعور أو لم يفصحوا , وتتجلى الإنطوائية القومية لدى الشعوب البدائية بأحسن أشكالها , في الأساطير والقصص الشعبية , والامثلة والعادات اللغوية , حيث يُصر الإنسان على التعبير عن صفات قومه الحميدة , ولهذا يحكم أي إنسان على النظام القيمي / الإجتماعي لدى أي شعب آخر , من خلال العلاقة التي تربط هذا الفرد بشعبه , وفق درجة الرغبة والقبول في ذلك , والتي قد تصل إلى حدود الرفض المطلق أو القبول المطلق , وفقاً لمعايير عامة , وكانت من أهم الإتجاهات الحديثة أيضاً في الأنثروبولوجيا الثقافية , تلك الدراسات التي عنيت بالمجتمعات المتمدنة , وما أُطلق عليها بدراسة الحالة , كدراسة أوضاع قرية أو عدد من القرى المتجاورة , أو منطقة معينة , أو دراسة ثقافة خاصة بمجموعة أو بفئة من البشر , إضافة إلى دراسات أكاديمية تتعلق بخصائص الأنثروبولوجيا الثقافية ومبادئها , ومناهج البحث فيها وطرائقها وأساليبها , وغيرها مما يسهم في إجراء الدراسات على أسس موضوعية وعلمية تحقق الأهداف المرجوة منها.